Carole Hillenbrand
Islam and the Crusades: Collected Papers

Édimbourg, Edinburgh University Press
2021, 416 p., 44 ill.
ISBN : 9781474485906

Mots clés : croisades, Jérusalem, jihad, Saladin, islam

الكلمات المفتاحية : الحروب الصليبية، القدس، الجهاد، صلاح الدين الأيوبي، الإسلام

الحروب الصليبية من الموضوعات التي هي دائما مثار جدل ونقاشات في الأوساط الأكاديمية على اختلاف الفترات والثقافات وباستمرار، هناك العديد من الدراسات العلمية التي تحاول استكشاف موضوعات ورؤى جديدة فيما يخصها. وهنا تأتي كارول هيلينبراند (Carole Hillenbrand) بمساهماتها المميزة دائما لتلقى الضوء عليها.

كارول هيلينبراند أستاذة فخرية في جامعة إدنبرة وأستاذة التاريخ الإسلامي بجامعة سانت أندروز منذ عام ٢٠١٣، وهي أول باحثة غير مسلمة تمنح جائزة الملك فيصل العالمية المرموقة للدراسات الإسلامية، مما يعكس نهجها الثوري في التعامل مع موضوع الحروب الصليبية بشكل خاص. ويعد كتابها الحروب الصليبية: المنظور الإسلامي، الذى نشر عام ١٩٩٩، عملا رائدا استكشف جوانب مهملة عن كيفية رؤية المسلمين لهذه الحروب كما نجدها في المصادر العربية في العصور الوسطى.

كتاب الإسلام والحروب الصليبية: مقالات مجمعة يضم ٢٠ مقالا تتناول هذا الموضوع من وجهات نظر متعددة، ويعتبر مصدرا هاما لفهم تاريخ هذه الفترة والعلاقات بين الإسلام والغرب خلالها. وتقدم فيه الكاتبة رؤى عميقة حول تأثير الحروب الصليبية على العالم الإسلامي وعلى تشكيل العلاقات بين المسلمين والمسيحيين من خلال التعرض لنقاط متنوعة مثل السياسة والثقافة والدين والعلاقات الدولية خلال هذه الفترة.

يبدأ الكتاب بمقدمة تروي فيها كارول هيلينبراند رحلتها الأكاديمية وتوضح اهتمامها الكبير بالحروب الصليبية وكيف استمر معها طوال رحلتها البحثية وساهم في تشكيل أفكارها وتوجهاتها العلمية. أول مقال يتناول نهج العصور الوسطى الإسلامية تجاه المصادر والمراجع والأدلة التاريخية، وذلك من خلال نظرة محددة على سجل تاريخي من القرن الثاني عشر. وتركز على كيفية تعامل العلماء والمؤرخين المسلمين في العصور الوسطى مع المصادر التاريخية وكيفية استخدامهم لها وطرق جمع وتحليل المعلومات وتوثيقها في سجلات تاريخية محددة وأساليب نقلهم المعلومات عن بعضهم البعض، وذلك من خلال دراسة كتاب تاريخ ميافارقين وآمد لابن الأزرق الفارقي (١١١٦-١١٧٦) ومقارنة معالجته من قبل أربعة مؤلفين مشهورين هم سبط بن الجوزي (١١٨٥-١٢٥٦)، وابن واصل (١٢٠٨-١٢٩٨)، وابن خلكان (١٢١١-١٢٨٢)، وابن شداد (١١٤٥-١٢٣٤) الذين – على الرغم من افتقار هذا العمل إلى الجدارة الأدبية – استعاروا منه لأغراض متنوعة وفي أشكال متنوعة دون الاعتراف بذلك.

في مقالها الثاني، حاولت كارول هيلينبراند إلقاء الضوء على حلقة مهملة من «حروب الاسترداد» من خلال واقعة سقوط مدينة لشبونة خلال الحملة الصليبية الثانية، التي أطلقت عليها وصف «النجاح المسيحي». ومن المعتقد عموما أن الحملة الصليبية الأولى كانت الوحيدة التي اعتبرها العالم المسيحي ناجحة – حيث تمت فيها «استعادة» القدس –، لكن هذا المقال يؤكد أن الحملة الصليبية الثانية هي أيضا نجحت، وذلك بـ استعادة لشبونة من المسلمين، ويشير إلى ما قام به الصليبيون فيها من سلب ونهب وقتل لسكانها وكذلك إلى الفوضى التي لم يتوقعها أحد خلال هذه الحملة والتي كانت، طبقا لرؤية كارول هيلينبراند، هي التي حولت مجتمعا مسلما متسامحا ومتناغما ومسالما إلى مجتمع ساد فيه التعصب.

ونلاحظ أن بعض المقالات ذات موضوع واحد، فعلى سبيل المثال، يتناول المقالان الثالث والثامن استخدام النقوش الإسلامية كأدوات جهادية. ويتعرض أولهما لإشكالية «الدعاية الجهادية في سوريا»، التي لجأ إليها الحكام المسلمون من أجل رفع الوعي العام بضرورة الجهاد ضد الصليبيين في الفترة ١٠٩٩م-١١٤٦م، والتي أكدت المؤلفة أنه تم تجاهلها من قبل المسلمين إلى حد كبير. وأشارت على وجه الخصوص إلى النقوش الكتابية على المباني والأماكن الدينية والأوقاف والتي استخدمت في سوريا وظهرت بالتزامن مع الانتصارات العسكرية المتواضعة الأولى التي حققها المسلمون ضد الصليبيين وكان لها تأثير قوي في ذلك الوقت. كذلك، لفتت النظر إلى ضرورة بذل المزيد من الجهود في مختلف جوانب الأدلة الكتابية من خلال تحليل السمات اللغوية للنقوش، وبنياتها النحوية، وإيقاعاتها، وتقنياتها الأدبية، والعلاقة بين النقوش التاريخية والقرآنية حيث أنها تمثل وثائق تاريخية مهمة. أما المقال الثامن فهو عن استخدام القرآن في النقوش الأثرية في سوريا وفلسطين في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وهو يحلل الرسائل والرموز الدينية والسياسية التي كانت تستعمل كجزء من الدعاية الجهادية في هذين البلدين خلال تلك الفترة ويستعرض شهادات الإيمان والتحفيزات الدينية التي لجأ إليها الحكام والزعماء لدعم الجهاد ضد الصليبيين باستخدام الرموز والنصوص الدينية لتعزيز الروح المقدسية والمشاركة في الجهاد خلال الصراعات بين المسلمين والصليبيين في سوريا وفلسطين.

في المقال الرابع، تدرس كارول هيلينبراند الحملة الصليبية الأولى من منظور إسلامي. وتشير إلى اعتماد مؤرخي الحروب الصليبيين على القليل من المصادر الإسلامية المترجمة على الرغم من وجود مجموعة كبيرة من المصادر العربية غير المنشورة تضم معلومات في غاية الأهمية عنها. كذلك، تناولت إشكالية فهم المسلمين لهذه الحملة وردود أفعالهم عليها، التي كانت غير واضحة لأنهم لم يتمكنوا من تحديد وفهم الصليبيين، وأشارت إلى تعرض القوى الإسلامية لموت العديد من قوادها والمدافعين عن رايتها خلال هذه الفترة، وأثبتت أن السلاجقة ضحوا بسوريا وفلسطين – وهم وحدهم الذين كانوا يمتلكون النوع المناسب من القدرة العسكرية لإنقاذهما –، حيث كانوا مهووسين بصراعاتهم على السلطة في إيران إلى الحد الذي جعلهم عاجزين عن اتخاذ قرار بشأن هذا الغزو.

BCAI 39 (2025) Carole Hillenbrand: Islam and the Crusades: Collected Papers, recensé par Mohammed Ibrahim
© IFAO 2026 BCAI en ligne http://www.ifao.egnet.net

يتناول المقال الخامس مسيرة زنكي وجهادة ضد الصليبيين ودوره الكبير في إيقاد روح الحماسة لدى المسلمين في صراعهم المستمر معهم، وأكدت كارول هيلينبراند أنه «مهما كانت المؤهلات الدينية لزنكي في نظر معاصريه، فإن الحقيقة تظل أنه كان زعيما بارزا، وأول قائد مسلم قدر على الحفاظ على قاعدة قوة صلبة وحشد دعم عسكري واسع النطاق ضد الفرنجة لفترة طويلة». كذلك، أشارت إلى أن المصادر الإسلامية في العصور الوسطى تقدم كنزا من المعلومات التفصيلية عن حياة زنكي، فاتح الرها، وتكشف عن نموذج القيادة القوية الذي تجسد فيه باعتباره أول قائد عسكري قوي حقا دخل في صراع مع الفرنجة وقطع شوطا طويلا نحو توحيد سوريا تحت قبضته الحازمة. وقد استُكْمل الحديث عنه في المقال الرابع عشر الذي جاء بعنوان «شيعة حلب في العصر الزنكي: بعض الأدلة النصية والنقوش غير المكتشفة»، والذي يمثل إضافة إلى تاريخ شيعة حلب في هذا العصر من خلال مجموعة من النصوص التاريخية الهامة.

يتناول المقالان السادس والحادي عشر الأيوبيين، ودرست فيهما المؤلفة السياسة الأيوبية في زمن صلاح الدين التي هدفت إلى تعزيز الإسلام السني وبناء نظام سياسي موحد في سوريا ومصر أدى إلى أن ساد التوازن والاستقرار داخل الدولة الأيوبية. كذلك، أكدت أنه من المهم النظر إلى سياسة الأيوبيين لا في علاقتهم بالصليبيين فحسب، ولكن أيضا في سياقهم الإسلامي الأوسع، إذ كان عليهم أن يتنافسوا مع دول مجاورة أخرى كالسلاجقة الأناضوليون الأقوياء والزنكيين في الجزيرة، والممالك المسيحية القوقازية وغيرها من أجل التوسع، ونجحوا برغم ذلك في البقاء والسيطرة لفترة طويلة.

ويتضمن المقال السابع تأملات حول سجن رينالد شاتيلون، وتناولت فيه كارول هيلينبراند بعض جوانب مسيرته المرتبطة بحبسه في حلب؛ وأشارت إلى المكان الذي يحتمل أن يكون قد سجن فيه، ونوع المعاملة التي تلقاها على أيدي خاطفيه المسلمين، والآثار النفسية لاعتقاله الطويل، وعرضت معلومات عن هذه الشخصية التي منذ أن وطئت قدماها الأرض المقدسة في الحملة الصليبية الثانية، كان مقدرا لها أن تحدث ضجة كبيرة على حد المؤلفة.

في المقال التاسع أشارت كارول هيلينبراند إلى إرث الحروب الصليبية الذي تشكل في المخيال الغربي: على الرغم من خسارة الأوروبيين للأرض المقدسة، لم ينسوا هذه الحروب وظلت ذكرياتها ماثلة في تاريخهم، حتى بعد أن توقفت الإمبراطورية العثمانية عن تشكيل تهديد حقيقي لأوروبا؛ وكانت العديد من تصوراتهم للمسلمين والعالم الإسلامي متجذرة في التجربة الصليبية.

وكرست المؤلفة الفصل العاشر والفصل السادس عشر والفصل التاسع عشر لتسليط الضوء بشكل خاص على حياة صلاح الدين الأيوبي ومسيرته وإرثه، سواء بالنسبة للغرب أو بالنسبة للمسلمين. في المقال التاسع تناولت أسطورته في الغرب المسيحي وصورته التي مازالت عالقة في الأذهان، وفى المقال السادس عشر تناولت مسيرته ودوره الكبير في استعادة بيت المقدس من أيدي الصليبيين، بينما تحدثت في المقال التاسع عشر عن «خبراء الدعاية لصلاح الدين»، وهو أمر جدير بالملاحظة لأنه يستذكر نجاحه في الحفاظ على صورته كبطل وزعيم ملهم لأجيال من السياسيين والقادة العسكريين المسلمين. ولم يكن ذلك ممكنا، كما تقول كارول هيلينبراند، إلا لأن ثلاثة من كبار كتاب سيرة البلاط أحاطوا به: القاضي الفاضل، وعماد الدين الأصفهاني، وبهاء الدين بن شداد، الذين وصفتهم بـ «مروجي الدعاية».

ويركز الفصلان الثاني عشر والسابع عشر على القدس في عهد الأيوبيين. في أولهما أشارت المؤلفة إلى أن قصة القدس في هذا العهد ليست مجرد قصة فوضى ومساومة على ملكية المدينة، بل أيضا قصة تكتيكات يائسة للبقاء، في فترة من المخاطر الخارجية العظيمة لم يتراجع فيها خطر الحروب الصليبية وكان شبح الغزو المغولي الأكثر فظاعة يلوح في الأفق. وعلى هذه الخلفية، كان الأمراء الأيوبيون قادرين أحيانا على الاتحاد ضد عدو مشترك. حيث سعوا جاهدين إلى الاحتفاظ بأراضيهم بكل طريقة ممكنة. أما الفصل السابع عشر، وعنوانه «الأرض المقدسة في العصرين الصليبي والأيوبي»، فتروي فيه التفاعلات الإيجابية بين الصليبيين والمسلمين حتى أثناء الحرب. وبناء على مصدر إسلامي هام يعود إلى القرن الخامس عشر كتبه المقريزي، تذكر كارول هيلينبراند التحويل «الإجباري» للمسلمين إلى المسيحية من قبل الصليبيين؛ وتكتب أن «عددا من الفرنجة ورد أنهم تحولوا إلى الإسلام»، دون أن تذكر أي شيء عن هذا التحول، غير موضحة إذا كان هو أيضا قسريا – والتحول المسيحي إلى الإسلام أثناء الحروب الصليبية مجال بحثي مهم، ولكن لم يتم إجراء أي عمل جوهري عنه حتى الآن. كذلك، تجادل المؤلفة بأن السجلات العربية الإسلامية بالغت في تقدير حجم الموت والدمار والمذابح التي ارتكبها الفرنجة أثناء سقوط القدس عام ١٠٩٩.

وحاولت المؤلفة في الفصلين الثالث عشر والخامس عشر إيضاح استخدام المسلمين لمفهوم الجهاد لأسباب متعددة على مر التاريخ، أثناء الحروب الصليبية وبعدها وحتى الوقت الحاضر. وتناولت في الفصل الثامن عشر الحشاشين بين الحقيقة والخيال – وكان ينظر إليهم باعتبارهم صوفيين وقاتلين، وقيل إنهم كانت تقودهم في سوريا شخصية كاريزمية تعرف باسم «شيخ الجبل». وأشارت إلى أنه كان هناك رواية تحدد أسطورة شيخ الجبل في العصور الوسطى وهي رواية ماركو پولو التي كتبت في أوائل القرن الرابع عشر، وتتكون من مواد أسطورية وفولكلورية نشرها في جميع أنحاء الشرق الأوسط وأوروبا المسلمون السنة، والصليبيون، والمسافرون اليهود والمسيحيون والمسلمون الذين زاروا سوريا ومصر والأراضي المقدسة وإيران منذ القرن الثاني عشر فصاعدا. وذكرت أن الأساطير التي تحيط بالحشاشين استمرت لفترة طويلة بعد اندثارهم، لكن البحث التاريخي الدقيق من شأنه أن يساعد على إلقاء المزيد من الضوء على هويتهم الحقيقية.

وتختتم كارول هيلينبراند مقالاتها بسرد شيق بعنوان «السلطان، والقيصر، والكولونيل، والإكليل المسروق» تناولت فيه إشكالية مكان دفن صلاح الدين بدمشق، والإكليل الذي وضعه القيصر فيلهلم الثاني (١٨٥٩–١٩٤٠) عليه والذي أزيل مرة أخرى بواسطة الأمير فيصل والعقيد لورنس عام ١٩١٦، وتساءلت عن ماهية هذا الإكليل وهل كان وضعه للتكريم أم بغرض آخر مخالف.

وخاتمة القول أن كتاب الإسلام والحروب الصليبية يجمع عددا من الدراسات المثيرة للاهتمام حول المنظور الإسلامي للحروب الصليبية، ورغم أن أغلب فصوله لا تقدم دراسات جديدة وأن مواضيعها سبق للمؤلفة أن تناولتها في كتابها الصادر عام ١٩٩٩، فإنه يقدم مجددا المنظور الإسلامي للحروب الصليبية، وسيثبت أنه أداة مفيدة للطلاب والعلماء والمهتمين بالموضوع.

محمد إبراهيم عبد العال،
كلية الآثار بجامعة عين شمس
–المعهد الفرنسي للآثار الشرقية

BCAI 39 (2025) Carole Hillenbrand: Islam and the Crusades: Collected Papers, recensé par Mohammed Ibrahim
© IFAO 2026 BCAI en ligne http://www.ifao.egnet.net